اسم الدرس : وقفات مع سورة البقرة | الآية ٧٨

تصنيف الدرس : خطبة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيءٍ قدير، وأصلِّي وأسلِّم على سيد الخلق أجمعين محمدٍ ﷺ ، بلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح للأمة؛ فما ترك خيرًا إلا ودلَّنا عليه، وما ترك شرًا إلا وحذَّرنا منه؛ فصلاةً وسلامًا دائمين من رب العالمين على أشرف المرسلين محمدٍ ﷺ، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}[آل عمران:١٠٢].

أمَّا بعدُ...

أحبتي في الله نكرر دائمًا وأبدًا أنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يترك الخلق سُدًى ولم يخلقهم عبثًا؛ ولكن خلقهم لغاية، قال ربنا سبحانه وتعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}[الذاريات:٥٦]، ولأجل هذه الغاية أرسل الله عزَّ وجلَّ الرسل، وأنزل الله عزَّ وجلَّ الكتب ليكون الناس على بينةٍ من أمرهم، {ليحيى من حيَّ عن بينة ويَهلِك من هلك عن بينة}[الأنفال:٤٢]، واصطفى الله عزَّ وجلَّ لهذه الأمة خير الرسل محمدًا ﷺ، واصطفى لها خير الكتب القرآن الكريم، فمن تمسك بكتاب الله وبسنة النبي ﷺ فقد نجا وأفلح، ومن أعرض عنهما فقد خاب وخسر.

أحبتي في الله، حينما تفتح المصحف فتقابلك أول سورةٍ في القرآن بعد سورة الفاتحة سورة البقرة، هذه السورة العظيمة التي تَحدَّث فيها الحزب الأول من الجزء الأول من القرآن عن بني إسرائيل، وكيف أن بني إسرائيل أعرضوا عن شرع الله سبحانه وتعالى، أخبرنا ربنا سبحانه وتعالى في هذا الحزب عن نِعَمِهِ المتتالية على بني إسرائيل وكيف أنهم أعرضوا بالرغم من كل هذه النِّعم، أخبرنا ربنا سبحانه وتعالى عن الابتلاءات المتتالية، ابتلاهم الله عزَّ وجلَّ بالسراء والضراء.

ولكن قال ربنا سبحانه وتعالى -بعد كل هذه الابتلاءات وبعد كل هذه النِّعم-: {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً}[البقرة:٧٤]؛ لأن كثرة رؤية الآيات ثم الإعراض عنها بعد ذلك يؤدي إلى قسوة القلب، كثرة رؤية الآيات أن يرى الإنسان الآيات من الله سبحانه وتعالى، يرى المرض، يرى النعمة، يرى الزلازل والبراكين، يرى النجوم والشمس والقمر، يرى كل هذه الآيات في نفسه وفي الكون ثم يُعرض بعد ذلك! هذا جزاؤه أن يُصاب -والعياذ بالله- بقسوة القلب، إذا توالت الآيات على الإنسان ثم أعرض عنها يُصاب -والعياذ بالله- عقوبةً من الله سبحانه وتعالى عن

هذا الإعراض بقسوة القلب؛ فقال ربنا سبحانه وتعالى عن قسوة قلوب هؤلاء: {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ}[البقرة:٧٤] بعد ما رأوا قدرة الله سبحانه وتعالى على إحياء الموتى وعلى شقِّ البحر وعلى إنجائهم وعلى كل هذه النعم، ثم بالرغم من ذلك أعرضوا!

فقال لنا ربنا سبحانه وتعالى -مخاطبًا المؤمنين-: {أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ}[البقرة:٧٥] بعد كل هذا الإعراض عن النبي ﷺ؟ أتتوقعون وتطمعون في إيمانهم؟ ثمَّ بيَّن الله عزَّ وجلَّ لنا لماذا لا نطمع في إيمانهم حتى نستفيد من هذه التجربة، ولا نكررها في هذه الأمة؛ فإن مِن هذه الأمة مَن سيسير خلفهم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع حتى لو دخلوا جُحْر ضبٍ لدخلوه وراءهم! فقال الله عزَّ وجلَّ: {أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ}[البقرة:٧٥] إذًا انقسم بنو إسرائيل إلى فِرَق، ما الشيء الذي انقسموا حوله؟ أي على ماذا انقسمت تلك الفِرَق؟

{أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ}[البقرة:٧٥] كيفية التعامل مع كلام الله سبحانه وتعالى.

انقسم بنو إسرائيل في التعامل مع وحي الله إليهم إلى قسمين وقال بعضهم إلى أربعة أقسام -كما سنذكر بإذن الله عزَّ وجلَّ-، وهكذا تكون هذه الأمة، انقسم المُعْرِضون عن الوحي إلى هذه الأقسام، ولكن هناك من آمن وصدَّق.

قال ربنا سبحانه وتعالى الفريق الأول: {وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}[البقرة:٧٥] فريق يسمع كلام الله ثم يُحَرِّف الكلام، أي: يجعل الكلام ينحرف عن مقصده، الطريق يسير هكذا ولكن هناك حرف يؤدي إلى انحراف في الطريق، هناك طريق مستقيم. هؤلاء ضلّوا عن قصد؛ فغضب الله عليهم، يُحَرِّفون كلام الله، كلام ربنا سبحانه وتعالى له مقصد، من طاعة الناس تحكيم شرعه سبحانه وتعالى، فكلام ربنا سبحانه وتعالى نزل لمقاصد معينة، هؤلاء يُحَرِّفون كلام الله.

هل يمكن القول أن هؤلاء لما سمعوا كلام الله لم يفهموه؟ {ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}[البقرة:٧٥] هم يعلمون أنه يُحَرِّف، أي: فهموا كلام الله وهم متأكدون وموقنون أنه مُحَرِّف، هؤلاء هم الفسدة من العلماء الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا -والعياذ بالله-.

إذًا قسم منهم أيقن وفهم الوحي ثم أعرض بعد ذلك، لدرجة أن بعض المفسرين قال: {يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ}[البقرة:٧٥] أي: يسمعون كلام الله حقيقةً كما سمعه موسى، وأنَّ موسى عليه السلام لما اختار من قومه سبعين رجلًا {وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا}[الأعراف:١٥٥] أن هؤلاء السبعين سمعوا كلام الله حقيقةً ثم بعد ذلك حرَّفوه! وهذا اختيار الإمام الطبري وإن كان كثير من المفسرين رفض هذا القول، وقال: {يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ}[البقرة:٧٥] أي: بتلاوة موسى عليهم { فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ}[التوبة:٦]، أيًّا كانت كيفية السماع المهم أنه عَقِل وفَهِم وأيقن بمراد الله سبحانه وتعالى ثم حَرَّفه عن قصد ليوافق هواه.

وبعدما يُحَرِّفون كلام ربنا سبحانه وتعالى كيف سيواجهون الناس؟ {وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ}[البقرة:٧٦] إذًا هناك فريق آخر منافق، يُغَيِّر في الكلام لكن لا يجهر بالتحريف (فريق المنافقين) {قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ}[البقرة:٧٦,٧٧] تلك الآيتان أو الآية الثانية قال بعض أهل العلم فيها قسمان: قسم المنافق، وقسم مَن يُجادل ويُعلِّم المنافق. {أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ}[البقرة:٧٦] أي: هناك منافقون صغار، وهناك رؤساء للنفاق يعلّمونهم كيف يكون النفاق، ماذا يقول، وماذا لا يقول، هكذا ينقسم أهل الضلال.

العجيب –وهذه الآية التي أريد أن أتوقف عندها في هذه الخطبة– {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ}[البقرة:٧٨] قسم من العلماء الفسدة أيقن وفَهِم كلام الله ثم أعرض، وقسم مُنافق، وقسم يُعَلِّم ويُجادل المنافقين، ثم قسم عُطِف عليهم {وَمِنْهُمْ} أي: ومن هؤلاء الذين لا تطمعون في إيمانهم، لا ينبغي أن تطمعوا في إيمانهم، هؤلاء أيضًا لن يؤمنوا، لماذا يا رب؟ لأنهم {أُمِّيُّونَ}.

{وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ}[البقرة:٧٨] الأمِّيَّة قد لا تكون وصف ذم، الأمِّيَّة على حال الإنسان على فطرته الأولى أول ما نزل من بطن أمه، –أيًّا كانت النسبة– اختلف أهل اللغة إلى ماذا ينسب إلى أمه أو إلى الأمة لكنه لا يقرأ ولا يكتب، {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ} من الممكن للأمي أن يتعلم، هؤلاء لا يريدون أن يتعلموا، **فوصف الأمِّيَّة كان في حق النبي ﷺ مدحًا؛ لأن الناس يتعلمون من بعضهم البعض ولكنَّ النبي ﷺ علَّمه الله سبحانه وتعالى.**

{وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ}[البقرة:٧٨] تخيل أنزل الله كتابًا ثم لا يتعلمونه! الكتاب لأي أمة هو جمعٌ بعد شتات، هو نورٌ بعد ظلمة، هو نجاةٌ بعد مهلكةٍ ومفازة، هو حياةٌ بعد موت، كتاب يجمع شتات الأمة، يبني لها حضارة، يجعل لها مستقبلًا، كيف لا يتعلمون الكتاب؟ كيف يتحاكمون؟ إلى ماذا يرجعون عند الاختلاف؟ ما الذي يضبط حياتهم؟ هل كلامي أم كلام فلان الأقوى أم كلام فلان؟ لا بد أن ترجع الأمة إلى كتاب تتحاكم إليه وترجع إليه عند الخلاف يبصرهم ويقودهم.

أنزل الله كتابًا منهم من حرَّفه، ومنهم من أعرض عنه، هكذا تفسد الأمم بين علماء يحرِّفون، وعامة يتَّبعون، هكذا تفسد الأمم ولن تُصلح الأمة إلا بعلماء يُبَيِّنون، وعامة يَتَبَيَّنون ثم يَتَّبِعون، عندما نترك هذه الأمِّيَّة تجاه الكتاب –كتاب الله سبحانه وتعالى–؛ هذا يؤدي إلى فساد الأمة، ويؤدي كما ذكر الله سبحانه وتعالى إلى المفاسد التي سوف تُذكر بعد هذه الآية.

{وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ} الأمِّيَّة المذمومة هي الأمِّيَّة تجاه الوحي.

{لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ} فتكملة لا يعلمون الكتاب تبين لماذا وصف الأمِّيَّة هنا وصف ذم، لماذا وصف الأمِّيَّة هنا يؤدي إلى عدم الطمع في إيمانهم. {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا}[البقرة:٧٨] إذًا بدأوا يتعلّمون، هل من الممكن أن يتعلموا شيئًا من الكتاب؟ هل هذا استثناء متصل أي: لا يتعلمون كثيرًا من الكتاب ولكن يتعلمون قليل من الكتاب؟ أم استثناء منقطع أي: لا يتعلمون شيئًا ولكن يتعلمون أشياء أخرى؟ إلا ماذا؟ {إِلَّا أَمَانِيَّ} ماذا معنى {لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ}[البقرة:٧٨]؟ ولماذا أصلًا نتدارس هذه الآية في هذه الخطبة؟ لأن منَّا من سيسير على طريقهم كما قال كثير من أهل العلم، وذكر الإمام الرازي حتى في تفسيره: "ولقد وجدنا في هذه الأمة هذه الأقسام"، وانقسم الناس إلى هذه الأقسام أيضًا في هذه الأمة، أي: إلى علماء يُحرِّفون، ومنافقون، ومن يُعلّم المنافقين. وهؤلاء الأمِّيون –والعياذ بالله– حتى لا نكون مثلهم **{لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ}**

قال بعض أهل العلم: الأمانيّ هي الكذب والاختلاق والتَّمني، الأمنية أن يُقَدِّر الإنسان في نفسه شيئًا ليس بموجود، أن يقدر الإنسان في نفسه ما يتطلع إليه الأمل وليس عنده الأسباب؛ فيظل يحلم بهذه الأشياء حتى يُصَدِّقها وأحياناً تصبح كذبة؛ لأنه تمنَّاها ثم صدّقها فأصبحت كذبة! هذا الكلام الذي ذكرته مجموع من أقوال المفسرين يُبَيِّن لنا كيف تعامل أهل العلم مع هذه اللفظة حينما توقفوا عندها، حتى لا نسير على طريقهم، حتى لا نتعامل مع القرآن كما تعاملوا هم مع وحيهم.

المعنى الأول لأمانيّ: إلا أكاذيب وقصص مختلقة تلقَّوْها من علمائهم الفسدة فصدَّقوها؛ لأنها وافقت أهواءهم، كل الذي يعرفه عن الدين بعض القصص، أغلبها كذب، فصَدَّقها ولا يريد أن يتعلم غيرها، لماذا؟ لأنها توافق هواه ولا تضره في شيءٍ في دنياه فصدقها وآمن بها، يسمع شيئاً -كما قال ابن عطية- بظنه فيُصَدِّقه ويظن أنه الوحي {وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ} [البقرة:٧٨]، يُعجبه هذا الأمر الذي سمعه، سمع قصة، وأين بقية الدين؟! لا يسمع عنه شيئاً! أين بقايا ما أنزل الله عزَّ وجلَّ؟ هل كل ما أنزل الله عزَّ وجلَّ من الوحي مجرد هذه الأكاذيب وهذه الأمنيات؟!

هناك أناس عندها الدين مجرد أمنيات، أن الدين مثلًا: أنا أحتاجه عندما يمرض ابني، عند زواج ابنتي، عند حدوث مشكلة، أنا محتاج للدين في هذه اللحظة فقط! الدين بالنسبة لهذا الشخص مجرد أمانيّ وهذا هو **القول الثاني** **{إِلَّا أَمَانِيَّ}** أي: أمنيات هو يتمنى أن يدخل الجنة بدون أي عمل، يتمنى ذلك! يتمنى أن يدخل الجنة طالما ((قلبه أبيض)) ليس مهمًا أن يصلي! يتمنى أن يدخل الجنة حتى لو كان تعامله بالربا؛ ليس مهمًا! المهم أنه بعدما يتم التعامل بالربا يتصدق بعشرة جنيهات لله!

لذلك قال ربنا سبحانه وتعالى بعد هذه الآية: {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ}[البقرة:٧٩] ثم قال بعدها: {وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً}[البقرة:٨٠] انتشرت الأماني في المجتمع، الأمنيات أننا لن ندخل النار، أو مهما حصل سندخل النار فهي أيام معدودة أطعنا أم عصينا، فلمَ نطيع؟ لمَ يتعب الإنسان في الدنيا؟ أو أن أحدهم يقول: "أنت مهما حصل ستدخل الجنة"! هذه مفاهيم تنتشر عند الناس، السؤال هنا: "ألا تخشى سوء الخاتمة؟"

ألا تخشى ألا تموت على الايمان، أو أن يُسلب منك هذا الإيمان؟ {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ}[الأعراف:١٧٥] يعيش الانسان بين الرجاء والخوف. استغلال معلومات صحيحة في العقيدة مثل: أن المؤمن العاصي لا يُخلَّد في النار ثم تُروَّج على الناس بصورة معينة، أن افعل ما تشاء! ما يشاء من المعاصي قد يؤدي إلى طبع على القلب وانصراف عن الدين -والعياذ بالله-، هناك أعمال قد يكفر بها الانسان؛ فإذاً يصبح الدين مجرد أمنيات وأكاذيب. هو يتمنى أن يكون الدين في هذه الصورة بعض المعاملات الطيبة وفقط! بمعنى أن يقول أحدهم: الدين أن تحافظ على المواعيد فقط، هذا من الدين، والعجيب أنه لا يحافظ على موعده مع الله في الصلاة، ثم يتكلم عن أهمية الاهتمام بالموعد! وأنت لا تحافظ على مواعيد الصلاة في الميثاق الذي بينك وبين ربك الذي خلقك وأنعم عليك وأعطاك! أقل شيء لشكر هذه النعمة أن تحافظ على موعدك مع ربك في الصلاة! ثم يذهب ويتحدث إذا أضر الأمر بدنياه أن الدين هو أننا نحافظ على

المواعيد؛ ينتقي من الدين ما يناسب أمنياته، ما يناسب هواه؛ لكن إذا خاطبه بالدين بسيئاتهم ليغيروها، أو بأعمالهم ليبدلوها قالوا هذا ليس من الدين!

{حسبنا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا}[المائدة:١٠٤].

- القول الأول: أماني أي: أكاذيب.
- القول الثاني: أماني أي: أمنيات.
- القول الثالث: قال بعض أهل اللغة {لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ}[البقرة:٧٨]: تمنى أحيانًا تأتي في اللغة بمعنى التلاوة {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى}[الحج:٥٢] قال بعض السلف: أي إلا إذا تلا أي: قرأ. كان الإنسان وهو يقرأ يتمنى أشياء يجدها في القراءة، أو يُقَدِّر أشياء في نفسه قبل أن يقرأها ويتكلم بها باللسان، أيًّا كان فقالوا: **{إِلَّا أَمَانِيَّ} أي: تلاوة بغير فهم**. {لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ} لا يعلم أي شيء من الكتاب غير إنه يسمع آيات، أو يتلو آيات لا يفقه فيها شيئاً! فقال بعض أهل العلم: {لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ} أي: يسمع الآيات فبالتالي هو أُمِّيّ لا يستطيع أن يقرأ؛ ولكن يسمع الآيات، لا يسأل عن معناها، ولا يتدبر فيها، ولا يشغل باله بما تُلي عليه. أو {إِلَّا أَمَانِيَّ} أنهم كانوا يستطيعون القراءة؛ لكن كانوا لا يفهمون ولا يتدبرون، فهذا أيضاً يُسمى أُمِّيّ. {لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ} [البقرة:٧٨] تلاوةٌ بدون فهم.

إذاً حينما يكون عامة الناس في مجتمع: إما أن الدين بالنسبة إليهم أكاذيب قصص وأكاذيب مختلقة، أمنيات يتمنونها لإصلاح دنياهم فقط، أو تلاوة بغير فهم، ماذا يحدث في هذا المجتمع؟ هذا بإذن الله عزَّ وجلَّ ما سنتكلم فيه بعد جلسة الاستراحة.

أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم.

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، محمدٍ ﷺ. أحبتي في الله كما ذكرنا بعد أن ذكر ربنا سبحانه وتعالى في الحزب الأول من الجزء الأول من سورة البقرة نعمهُ سبحانه وتعالى على إسرائيل، وكيف أنهم أعرضوا عن هذه النعم، وكيف أن الله عزَّ وجلَّ ابتلاهم بالسراء والضراء ولكن

قست قلوبهم فكانت كالحجارة. ويخبرنا الله عزَّ وجلَّ أن الطمع في خشية الحجارة أقرب وقوعاً من الطمع في إيمان هؤلاء فقال ربنا بعد أن قال سبحانه وتعالى: {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ }[البقرة:٧٤] أي أن الحجارة منها من يسقط من خشية الله ومنها من يكون أكثر خشية من قلوب هؤلاء. ثم قال ربنا سبحانه وتعالى: {أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ}[البقرة:٧٥] هؤلاء اليهود –بعد كل الإعراض عن هذه الآيات– تطمعون أن يؤمنوا لكم!

وبين الله عزَّ وجلَّ أن الناس لن ترجع إلى دينه طالما أن هناك علماء يُحَرِّفون، وعامة يُقَلِّدون، ويَتَّبِعون بدون أن يَتَبَيَّنوا. فقال ربنا سبحانه وتعالى عن عامة الناس في هذا الوقت: {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ}[البقرة:٧٨] أعرضوا عن كتاب ربهم، وتعلموا أشياء أخرى، فابتعدوا عن كتاب الله سبحانه وتعالى، وأصبح الدين بالنسبة إليهم مجرد أكاذيب وقصص ثم يُصَدِّق أنها من الدين. أحيانًا بعض الناس يقول لك: "الله عز وجل يقول كذا". فتقول له: أين قال ربنا سبحانه وتعالى كذا؟ يقول لك في القرآن. هذه ليست آية في الكتاب! من أخبرك أن هذه آية؟! هو يصدق هذا الشيء لأنه يوافق هواه، ثم يقرره على أنه من الدين. فقال ربنا سبحانه وتعالى: {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ}[البقرة:٧٨] أكاذيب أو قصص مختلقة، أو أمنيات لإصلاح دنياهم، أو تلاوة وسماع بدون فهم وتدبر. {وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ}[البقرة:٧٨] أصبح الدين عندهم مجرد ظن لا تيقن فيه.

ثم قال ربنا سبحانه وتعالى إذا انتشر هذا الفساد في أمة، انتشر فساد العلماء وفساد العامة هنا قال ربنا سبحانه وتعالى: {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا}[البقرة:٧٩] الدين يُحَرَّف ولا يتكلم أحد! أمر عجيب جدًا وحي أنزله الله عزَّ وجلَّ يُحَرَّف – وليس معنويًا كما يحدث في هذه الأمة– يُحَرَّف كتابيًا، ويُكتب ويُباع، ويقولون هذا من عند الله ولا يتكلم أحد! الإنسان يتعجب كيف حدث هذا عند اليهود؟ كيف تكون التوراة نزلت يتعلمها الناس، ويُقبل عليها الناس، ثم يأتي علماء فسدة يكتبون الكتاب بأيديهم، يُحَرِّفون التوراة والإنجيل ويكتبون كتابًا، ثم يقولون هذا من عند الله! أين عامة الناس؟! كيف لا ينتفضون أمام هذا التحريف؟! كيف لا يتكلمون؟!

ثم إذا نزل الإنسان إلى واقعنا، ورأى هذه البرامج المنتشرة في الفضائيات أمام الناس تُحَرِّف الدين علانيةً، وتَسُب أصحاب النبي ﷺ علانيةً، وتُغَيِّر في آيات القرآن وأحاديث النبي ﷺ علانيةً، ولا يتكلم أحد، وجد الناس قوانين تصادم الشريعة وبرامج تطعن في الدين وفي الأئمة، ثم الناس يمارسون حياتهم بكل أريحية لفهمنا معنى هذه الآية أن الناس أصبحوا {أُمِّيُّون لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا

يَظُنُّونَ} [البقرة:٧٨]، فقال بعدها ربنا سبحانه وتعالى: {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ}[البقرة:٧٩] ويلٌ لهم في الآخرة؛ لأن الناس أعرضوا عن معاقبتهم في الدنيا.

{فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ}[البقرة:٧٩] هؤلاء العلماء الفسدة يحققون مصالحهم الشخصية، يكتبون الكتاب ليحصلوا على المال، وأما العامة يعيشون في أمنياتهم {وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً}[البقرة:٨٠] فأصبح العلماء الفسدة يحققون طموحاتهم الدنيوية بتحْرِيف الكتاب، والعامة بأمنيات تلقوها منهم كما أخبر النبي ﷺ (كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد)[1]. يُحَرِّفون ويُبَدِّلُون ويُغَيِّرُون فيما يوافق هواهم. إذا جاء أحد إليهم في قضية معينة، ينظرون في التوراة حكم التوراة كذا، فإذا أنفق مالًا دفع رِشوة أو كان من علية القوم غيَّروا له الحكم، وأما إذا كان ضعيفًا أقاموا عليه الحد. هكذا تَسَرَّب التحريف وتفسد الأمم بسبب انتشار هذه الأمِّيَّة.

إذًا –أحبتي في الله– يخبرنا ربنا سبحانه وتعالى بهذه الآيات حتى لا نسير وراءهم، حتى لا نسير خلفهم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع فهذا سبيل الفساد، فما هو سبيل الإصلاح؟ أن نعكس هذه الاشياء. سبيل الإصلاح أن يُبَيِّن العلماء وأن يَتَبَيَّن العامة، أن نقوم بمحو الأمِّيَّة القرآنية في المجتمع؛ هذا هو أحد الحلول لنصرة هذا الدين، وأن يقوم العلماء بواجب الله عزَّ وجلَّ عليهم وبحق الله عليهم في التبيين {لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ} [آل عمران:١٨٧]. أسأل الله عزَّ وجلَّ أن يستعملنا جميعًا لنصرة هذا الدين.

إذًا –أحبتي في الله– سبيل الإصلاح أن يُبَين الدينُ للناس، وأن يَتَبَين العامة أمر دينهم. هل يعقل أن إنسان يشعر بألم في قلبه مثلاً أو في صدره، ويستشير أي إنسان يقول له: قل لي أي علاج؟! ولا يتبين ويسأل ويذهب إلى طبيب وآخر، ويسأل عن مستواه الطبي، ويسأل ماذا يعمل، وهل عمل عمليات من قبل وكانت ناجحة، ويسأل أسئلة كثيرة قبل أن يأخذ الدواء أو يقوم بعملية جراحية؟! هذا في بدنه! أعلم بعض الناس قد يرد علي ويقول: أنت تعلم الآن أن هناك تضييق وهناك قلة من العلماء وكيف...

[1] عن عائشة أم المؤمنين: إنَّما أَهْلَكَ الذينَ من قَبْلِكُم، إنَّهُمْ كانُوا إذا سرقَ فيهِمُ الشَّريفُ تَرَكُوهُ، وإذا سرقَ فيهِمُ الضَّعيفُ أَقامُوا عليهِ الحَدَّ الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الجامع ٢٣٤٨ • صحيح

أقول: ابحث! يطلع الله عزَّ وجلَّ عليك يجدك تبحث عن الشريعة، عن مراده سبحانه وتعالى، لا عن هواك، ولا عما يوافق هواك. حينما يطَّلع الله عزَّ وجلَّ عليك من فوق سبع سماوات، ثم يجدك تبحث عن مراده، وتسأل، وتتحرى وتتبين كما تفعل لأمر صحتك ودنياك...

هكذا -أحبتي في الله- هو سبيل الإصلاح علينا أن نقوم بمحو الأمِّيَّة تجاه القرآن في أنفسنا، في أولادنا، في أزواجنا، في ذرياتنا، في أصدقائنا، في أقربائنا، في المسجد...إلخ أن نقوم بتعلم كتاب الله سبحانه وتعالى؛ لأن القرآن مليء بالحقائق، هذه الحقائق مبثوثة في القرآن. أغلب التحريف المعنوي الموجود الآن ويُنشر الآن في الإعلام. هناك حقائق قرآنية تصادمه؛ ولكننا لا نتعلم، ونمر على هذه الآيات، وتلاوة لكن تلاوة بدون فهم ولا تدبر.

أسأل الله عزَّ وجلَّ أن يستعملنا لتبيين هذا الدين ولتبين هذه الشريعة ولتطبيقها. اللهم اجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهلك وخاصتك، رب اجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهلك وخاصتك. رب اجعلنا مقيمي الصلاة ومن ذرياتنا ربنا وتقبل دعاء. اللهم أجرنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن، اللهم أجرنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن. اللهم وفقنا لفعل كل ما تحب وترضى وهيئ لنا من أمرنا رشدًا. اللهم احفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا وعن أيماننا وعن شمائلنا ومن فوقنا ونعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا. اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم. سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك. وأقم الصلاة.